



تناور روسيا على جبهات عديدة، وتشتغل دبلوماسيتها بكمال طاقتها، وتسخر آلتها العسكرية جهوداً جبارة، والغرض عدم حدوث تغييرات ذات قيمة في سوريا بعد الحرب، والاقتصار على إجراءات شكالية لا تؤثر على بقاء نظام الحكم المستبد، ولا تضمن تغيير أدائه لصالح واقع أفضل. تفعل روسيا ذلك، نتيجة تقدير عدم وجود مخاطر أو تهديدات ذات قيمة من شأنها التأثير على وجودها في سوريا، أو التأثير على إستراتيجيتها، أفله في الزمنين، المنظور والمتوسط، وتركت في ذلك إلى حقيقة أنها استطاعت، عبر سنوات وجودها الأربع، تحديد جميع الأطراف الخارجية، بل ونسج علاقات معها تساعدها على الاستقرار والتحكم في سوريا مدى زمنياً لا يأس به.

وانطلاقاً من هذا التقدير، تسعى روسيا إلى هندسة العملية السياسية بالأسلوب الذي استطاعت من خلاله إخراج اللاعبين، الدوليين والإقليميين، من اللعبة، أو على الأقل حصر تأثيراتهم في أضيق مساحة ممكنة، ومن ثم إجبارهم على القبول بمخرجات العملية السياسية التي تديرها والتفاعل معها، وبذلك تكون روسيا قد حققت نصراً في سوريا، واستعادت مكانتها الدولية من دون الاضطرار إلى إجراء تسويات مهمة في هذا الخصوص. ولكن إلى أي مدى تستطيع روسيا تحقيق هذا التصور، وما هي أدواتها لفعل ذلك؟

الخطأ الأول، في التقدير الروسي، أن سوريا لا تقع في المجال الحيوي الروسي، مثل الشيشان وجورجيا، ما يقلص درجة الاهتمام الدولي بهما، لانتفاء المصالح ووجود نسبة عالية من المخاطر أمام قدر متدين من الفرص، في حين تقع سوريا وسط منطقة تتشابك فيها المصالح الإقليمية والدولية التي تفرض على اللاعبين المختلفين وضعها في جدول اهتماماتهم، الأمنية والمصلحية. وبالتالي، استمرار حالة اللا استقرار، وكذا بقاء الأوضاع فيها مفتوحةً على احتمالات عديدة، من شأنها دفع اللاعبين الآخرين إلى محاولة تغيير المعادلات التي أسستها روسيا، والبحث عن صيغ جديدة.

الخطأ الثاني، استمرار روسيا في المقاربة نفسها للحدث السوري، التي استخدمتها في مرحلة تصفية الوجود العسكري للمعارضة، والعمل على نقلها إلى المجال السياسي، والتفاوض من أجل الخروج من مرحلة الحرب إلى مرحلة السلم، وهي مقاربةً معطوبةً قامت بالأساس على الانحياز لطرف معين في الحرب. ولم تُخفِّ عداؤها الأيديولوجي لطيف واسع من السوريين، إن لم يكن لأكثريتهم، وإنما كانت روسيا قد غفت استراتيجيتها العسكرية بخطاب الحرب على الإرهاب الذي منحها قدرًا واسعًا من الحرية للحرب على أغلبية السوريين، فإنه يستحيل عليها البناء على تلك الذريعة في مقاربتها السياسية وضمان النجاح فيها.

ما لم يفهمه الروس، ويصرّون على تجاهله، حقيقة أنّ الجزء الأكبر من نجاحهم تحقّق بفضل مساعدات الأطراف الأخرى، على الأقل لم يصنعوا عقباتٍ في طريق روسيا للسيطرة على سوريا، بل إنّهم زودوها بمقاييس لأبوابٍ كثيرة مغلقة، حتى الأمم المتحدة نفسها زودتها بإحداثيات المستشفيات التي قصفتها طائراتها، وكانت أحد أسباب انهيار البيئات الحاضنة للفصائل. ولكن هذه الأوضاع التي حصلت بحسن نية، أو بسوء نية، لن تستمر، والمساعدة الإقليمية والدولية توقفت عند هذه الحدود، ربما لأن تلك الأطراف حققت مصالحها، لكن الأهم أن روسيا لم يعد لديها شيء تمنّه لتلك الأطراف لتحفيزهم على مساعدتها.

الخطأ الأكبر في الإستراتيجية الروسية افتقارها الأدوات اللازمة للنهوض بسوريا من حالة الحرب إلى حالة السلم، فليس بين يدي روسيا سوى نظام يتربع بكمال هيكلته، قد يصلح لوضعه في فاترينة عرض، والقول للأطراف الدولية إنه نظام شرعي وصالح للحكم. وليس لدى أي طرف دولي مشكلة في التفاوض عن هذه الكتبة، ما دامت لا تتوّي شراء المعروض. ولكن إن أرادت روسيا ترجمة هذه الكتبة في الواقع ستجد نفسها متورّطة بهيكل متصدّع ومنظومة متفتقة، لا يمكن رقتها وإصلاحها، ولا يمكنها بالتالي حمل مهمة بحجم قيادة بلد محطم من الحرب إلى الإعمار.

لا يستطيع نظام الأسد توليد الديناميات اللازمة للدخول إلى مرحلة ما بعد الحرب. وفي ظلّ شحّ الموارد وندرتها، والأوضاع الاقتصادية المأساوية، تحتاج سوريا إلى أفكار وقيم جديدة ومحفزات قادرة على إنتشالها من هذا الواقع. ومع وجود نظام الأسد، بعقليته الفاسدة وافكاره المختلفة، وفي ظل تراجع القيم الوطنية في سوريا، يبدو مستحيلاً عبور المرحلة الجديدة بهذه الأدوات. وحتى لو استطاعت روسيا إقناع بعض المانحين بالاستثمار في سوريا، فلن يطول بهم المقام، ليكتشفوا أن حساباتهم خاطئة، لأنّها لم تأخذ هذا المعطى بالاعتبار، وهو انحطاط البيئة السورية، في ظل حكم منظومة الأسد، وعدم قدرتها على إنجاز أي شيء حقيقي.

المشكلة أن روسيا وإيران دولتان عسكريتان رعيتان وفاسدتان، لم تجرِا الانخراط بعمليات تنمية كبيرة بحجم إعمار بلد مدمّر، ولا تدركان أهمية البعدين، المعنوي والوطني، في إنجاز هذه العملية، والمناخ الذي تحتاجه عمليةً كهذه من حرية التفكير إلى الإحساس بالانتماء لهذا الواقع المُراد بناؤه.

لقد ضحى نظام الأسد بالنخب التقنية والمتعلمة. لم يعرف كيف يستفيد منها زمن الحرب، والآن أصبحت أسمها في أرصدة ثروات الدول التي استقبلتها، ولا يوجد ما يشجعها على العودة. كما حطم أسس الوطنية السورية، وبذلك دمّر رأسمال رمزيًا مهمًا كان يمكن أن يكون عاملًا مساعداً على تجاوز هذه المرحلة. وما لم يتم إصلاح هذه الأعطال في الجسد السوري، وتغيير مكانيزمات المقاربة الروسية للحل، سيكون مستحيلاً، على روسيا، تحقيق أي نتيجة إيجابية لتدخلها في سوريا، ولن تنفعها مناوراتها وتكلّماتها لتجين المعارضة السورية وخداع اللاعبين الآخرين.